سيرة مستعادة

على هامش محاضرة بونوا بيترز متى يعود جاك دريدا إلى الجزائر؟

احتفلت المدينة البيضاء على طريقتها بالذكرى الثامنة لرحيل فيلسوف التفكيكية، مستعيدة مسيرته الفكريّة والشخصيّة. مناسبة للبحث عن موقع دريدا الراهن من الذاكرة الثقافيّة في الجزائر

الجزائر ـ **فائزة مصطفى**

رغم أهمية الملتقيات الثقافية التي تناولت سيرة جاك دريدا في السنوات الأخيرة، تكاد فلسفته وفكره وكتبه تكون غائبة على نحو ملحوظ عن برامج الجامعات الجزائرية. انصراف الجزائريين عن الاهتمام بإرث دريدا، الذي دعم بقوة الثورة الجزائرية، السبب فيه كونه محسوباً عن غير حقّ على الأقدام السوداء (الفرنسيين الذين أقاموا في الجزائر خلال الاستعمار) وربما يعود لأصوله اليهودية. لهذا، تحضر ذاكرة الفيلسوف والكاتب الكبير (1930 ـ 2004) في المجتمع الجزائري على نحو شحيح، وإن لم يكن صاحب نظرية التفكيك محسوباً على بقايا الاستعمار الفرنسي. لهذا السبب، جاءت المحاضرة التي ألقاها تلميذه بونوا بيترز أخيراً في الجزائر، لتبثّ نفَساً جديداً في إرثه. الناقد والروائي ورسام الشرائط المصوّرة، جاء إلى الجزائر بدعوة من «وكالة الإشعاع الثقافي»، ليحكي عن الفيسلوف الراحل في ذكرى رحيله الثامنة. وكانت محاضرته في «ديوان دار عبد اللطيف» في الجزائر العاصمة، فرصة لتقديم كتابه «ثلاث سنوات مع دريدا ــ دفاتر كاتب سيرة» (فلاماريون ـ 2010).

تحدّث بيترز بإسهاب عن سيرة صاحب «الكتابة والاختلاف». هو لم يكن فرنسياً قط، بل جزائرياً حتى النخاع، ينحدر من أسرة أندلسية قدمت من البرتغال إلى شمال أفريقيا، مع هجرات الموريسكيين ويهود سفرديم، إثر سقوط غرناطة. كان بيترز من المقربين من دريدا، وحظي بفرصة الاطلاع على رسائله وأرشيفه الخاص. وفي كتابه «ثلاث سنوات مع دريدا»، يخصص جانباً مهماً لطفولة أستاذه، مشدداً على تأثير نشأته في الجزائر على صقل شخصيته وتكوينها. لهذا، استرسل في الحديث عن حياته الاستثنائية، منذ مولده في حي الأبيار وسط الجزائر العاصمة عام 1930، مروراً بعلاقته مع والده، الذي كان عاملاً في مؤسسة النبيذ. عرّج أيضاً على طرد صاحب «الصوت والظاهرة» من المدرسة عام 1942، رغمّ أنّه كان مميّزاً بين رفاقه. وجاء تسريحه بسبب التمييز العنصري، الذي طاول ذوي الأصول اليهودية، بعد إنزال النازيين في الجزائر مطلع الحرب العالمية الثانية.

هذا التمييز عده بيترز نقطة فاصلة في حياة دريدا، لكونه مثل دافعاً قوياً لإصراره على القراءة بعمق وصبر. راح يعلّم نفسه بنفسه، ويكتشف روسو، ونيتشه، وجيد، وسارتر. تميّزه في كرة القدم، جعله في المقابل، «رياضي تفكير»، ومنحه مقدرة رهيبة على التحمُّل والتركيز والملاحظة. عام 1949، عاش دريدا محطة مفصلية في حياته، حين غادر موطنه باتجاه باريس، ليقيم في مدرسة داخلية، ويتابع دراسته الثانوية. وجد ابن التاسعة عشرة نفسه أمام مدينة تحترف الفكر والفن والأدب. ودفعه ذلك إلى الاحتكاك بالنخبة المثقفة الفرنسية، فجاور ألتوسير وفوكو وبورديو وآخرين. وهناك بدأ نضاله ضد الحركات الاستعمارية، متبنياً الفكر اليساري. دريدا الذي قال في أحد حواراته الصحافية: «كانت المدرسة جحيماً بالنسبة إليّ»، فشل في اجتياز مسابقتين للالتحاق بالجامعة.

هكذا عاد إلى الجزائر، والتحق بالمدرسة العسكرية في مدينة القليعة، وعمل في ترجمة بعض المقالات، ليكسب عيشه مع زوجته المعالجة النفسية مارغريت أوكوتورييه، في وقت كانت فيه الجزائر غارقةً في ثورتها.

في مطلع عام 1960، أصبح دريدا أستاذاً للفلسفة والمنطق في «جامعة السوربون»، حيث بقي أربع سنوات. في تلك المرحلة، كانت انطلاقة «آخر الفلاسفة»، الذي ألّف أكثر من 80 كتاباً تسائل إرث غيره من الفلاسفة، مبتكراً مصطلحات جديدة في لغة مولير.

في محاضرته المطوّلة، تطرّق بيترز إلى موقف دريدا من الثورة الجزائرية. فقد برّر عدم توقيعه «بيان 121» الذي ضمّ الكثير من المثقفين الفرنسيين، في مقدمتهم سارتر، وسيمون دو بوفوار، لمساندة الثوار الجزائريين، ومناهضة جرائم بلادهم في الجزائر. والسبب بحسب بيترز أنّ وضع دريدا في ذلك الحين كان حرجاً جداً، مع وجود عائلته في الجزائر، وعلاقاته المتوترة مع الإدارة الفرنسية بسبب موقفه النقدي منها، كما يلحظ الروائي الفرنسي أنّ شخصية معلّمه، لطالما تميزت بالتريث في اتخاذ القرارات وتبني المواقف. «فقد كان يحتاج دوماً إلى وقت لتفكيك أي ظاهرة يريد دراستها»، يقول بيترز. وهذا في رأيه سر اهتمام دريدا بالقضايا العالمية، كمناهضته نظام «الأبرتهايد» في جنوب أفريقيا، ومساندته القضية الفلسطينية (راجع الإطار). فـ«السياسة كانت مفتاح فكر دريدا الفلسفي» كما يقول.

> في ذروة الثورة الجزائرية أدان سياسة فرنسا الاستعمارية

ليست المحاضرة التي احتضنها «ديوان دار عبد اللطيف» أخيراً، أولى المبادرات التي تكرّم فيلسوف التفكيك. عام 2006، احتفت الجزائر بالذكرى الثانية لوفاة دريدا عام 2006، في ملتقى دولي حمل عنوان «على خطى جاك دريدا»، كان يعد استثناءً في المشهد الثقافي الجزائري... إلا أن اعتراف المؤسسة الرسمية الجزائرية بمكانة دريدا، لم يشجع على حضور فعلي له في المنظومة التربوية. وبحسب مدير «منشورات البرزخ» سفيان حجاج، فإنّ «تغييب بعض المثقفين في الجزائر ليس مرتبطاً بشخص جاك دريدا فقط، إذ لا نرى في الجزائر شارعاً يحمل اسم كاتب ياسين أو محمد ديب مثلاً». وعن دور النخبة الثقافية ووسائل الإعلام في إعادة بعث الأسماء المستبعدة عن الخريطة الثقافية الجزائرية، وخصوصاً «الأقدام السوداء»، أمثال ألبير كامو وبيار بورديو، يرى حجاج أنّ دوره كمثقف وناشر، يكمن «في إعادة نشر كتب المثقفين الفرنسيين ذوي الأصول الجزائرية، تماماً كدوري في نشر أعمال كاتب ياسين، وابن خلدون وغيرهما».

في ذروة الثورة الجزائرية، أدان دريدا سياسة فرنسا الاستعمارية، وطالب بنوع من الاستقلال الذي يكفل التعايش بين الجزائريين والفرنسيين، كما يذكر الجميع أنّ دريدا كان من المبادرين الأوائل إلى إنشاء «حركة لمساندة المثقفين والصحافيين الجزائريين» عام 1993، بهدف حمايتهم من كابوس الاغتيالات التي طاولتهم على يد المد الديني المتطرف. اغتيالات راح ضحيتها كتاب وفنانون كثر، على غرار الصحافي عمر أورتيلان، والروائي الطاهر جاعوط، والمفكر الشاب بختي بن عودة الذي اغتيل عام 1996. وللمفارقة، فإنّ بن عودة كان قد نظم مع باحثين آخرين، أوّل مؤتمر عن جاك دريدا في «جامعة وهران» عام 1994. يومها، دعوه إلى المشاركة، لكنّه لم يستطع. وكان كتاب «الحداثة وما بعد الحداثة» لبختي بن عودة من الكتب النقدية الأولى في الجزائر، التي قدّمت قراءة تحليلية لفكر دريدا.

تجدر الإشارة إلى أنّ دريدا يعدّ من أبرز الشخصيات التي واجهت موجة الإسلاموفوبيا، بعد أحداث 11 أيلول، كما كان على حافة الظفر بـ«جائزة نوبل» لولا موته بعد صراع طويل مع سرطان البنكرياس، عن عمر يناهز الرابعة والسبعين. حين فارقنا قبل 2004، كان يستعدّ للموت، كأنّه فرصة أخرى للحياة. ألم يقل مرةً: «الموت هو طريقة لنكون بجانب الحياة». فهل سيُعاد اعتبار جاك دريدا في مسقط رأسه؟

بين فكي الكماشة

منذ أوائل الثمانينيات سجل دريدا مواقف إيجابية منّ القضية الفلسطينيّة، وانتقد السياسة الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، ما جعله مكروهاً من قبل اللوبيات الصهيونية، وخصوصاً في فرنسا. هكذا، اتهم بمعاداة السامية من جهة، وغيبت المؤسسة الثقافية الرّسمية فكره من جهة أخرى.

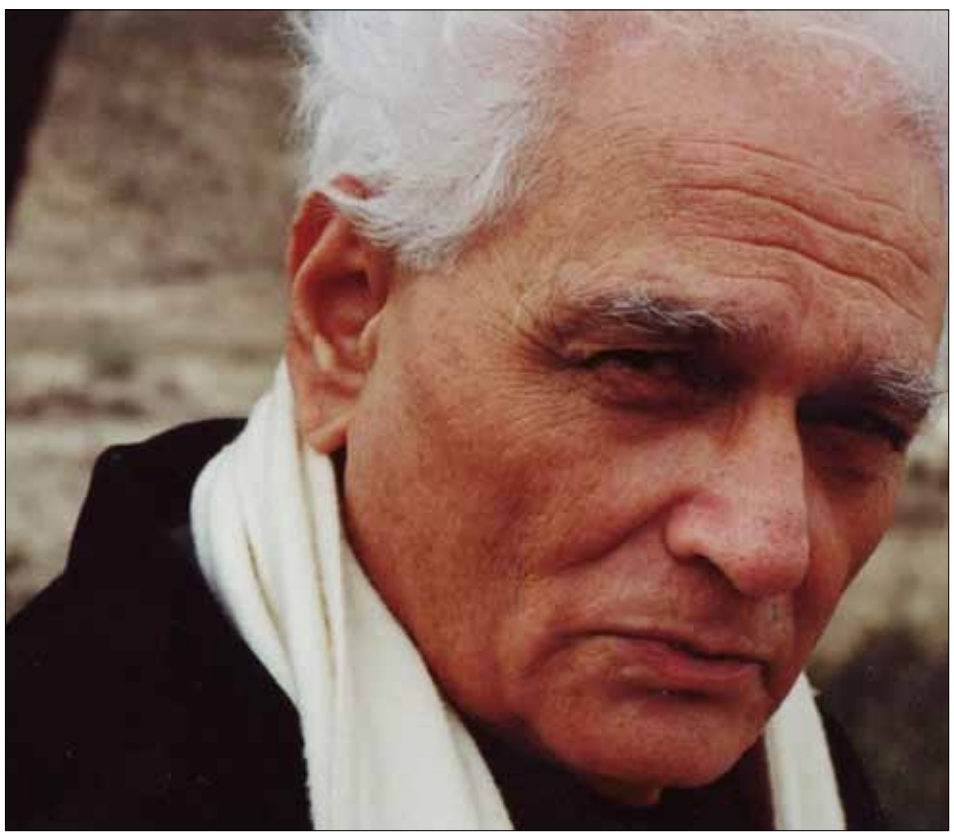

فلاش

■ وسط ما تشهده الساحة الفلسطينية الداخلية، يفتح «**المجلس الثقافي للبنان الجنوبي**» باب النقاش حول الوضع الفلسطيني الراهن. في ضوء عناوين «الأمم المتحدة، المبادلة، المصالحة»، يدعونا المجلس إلى ندوة يتحدّث فيها المدير العام لـ«مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات» **محسن صالح**، والصحافي المتخصص في الشأن الفلسطني **حلمي موسى**، بإدارة الباحث **محمد المجذوب**. اللقاء عند السادسة من مساء الغد في قاعة المجلس في شارع المزرعة (بيروت). للاستعلام: 01/703630

■ للسنة الثالثة على التوالي، تبادر «**جمعية أصدقاء الفيلم العربي في برلين**»، إلى تنظيم «**مهرجان الفيلم العربي في برلين**». ينطلق المهرجان في 2 تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل ويستمرّ حتى الـ 10 منه، وعلى برنامجه محطّات تكريمية لسينما **مارون بغدادي، وبرهان علوية، وعمر أميرلاي**... كما يخصص حيّزاً للفكاهة في السينما العربيّة، من خلال عرض أفلام ساخرة، وسياسية ناقدة، كذلك ينظّم المهرجان ندوة تجمع المخرجة المغربية زكية طاهري، والمنتج المغربي أحمد بو شعلة، والسينمائيين المصريين داود عبد السيد، وشريف البنداري، وفيولا شفيق، والناقد المصري كمال رمزي. www.alfilm.de

■ تواصل العازفة والموسيقية **جويل خوري** (الصورة) سلسلة محاضراتها عن الموسيقى المعاصرة، بدعوة من «**جمعية السبيل**». في أمسية موسيقية يتخللها تحليل مقطوعات موسيقية، ستأخذنا خوري إلى عالم **جون كيج** (1912 ـ 1992). تحت عنوان «تأليف مفتوح»، ستحكي عن تجربة الموسيقي والمؤلف والفيلسوف والشاعر الأميركي، الذي رافق ميرس كونينغهام في إرساء قواعد الرقص الحديث، وكان من المجددين في الموسيقى بين أبناء جيله. اللقاء عند السابعة من مساء الجمعة 28 تشرين الأول (أكتوبر)، في «المكتبة العامة لبلدية بيروت» (مونو ـ بيروت). للاستعلام: 01/203026

■ خلال مسيرته الفنيّة الموزّعة بين رسم ونحت، أقام **روبير حلو** (1958 ـ آذار/ مارس 2011) معرضين فقط. كان التشكيلي اللبناني الراحل يفضل العمل في محترفه، بعيداً عن الأضواء. بعد مرور أشهر على رحيله، يكرّمه فضاء «**كتانه كونيغ**» (تانيت) من خلال معرض لمنحوتاته بعنوان «**كلاسيك**»، يستعيد من خلاله إنتاجه الغزير الذي بقي في الظلّ. يحتوي المعرض على 11 عملاً، لم تعرض في السابق، وسيفتتح عند السادسة من مساء الثلاثاء 1 تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل، على أن يستمرّ حتى 3 كانون الأول (ديسمبر). للاستعلام: 01/738706

■ يشتغل **ألان واصويان** (1966) تماثيله الصغيرة الملوّنة بالصمغ، والخشب والسيليكون. بعدما استضافت معرضه الفردي الأول «مدينة دودجو» قبل عامين، تفتتح صالة «**جانين ربيز**» (الروشة ـ بيروت) معرضاً جديداً للتشيكلي اللبناني عند السادسة من مساء الأربعاء 9 تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل، ويستمرّ حتى 26 منه. للاستعلام: 01/805061

■ في صالة «**ذا رانينغ هورسز**»، تعرض **مريم أميني** مجموعة لوحات، وتجهيزات، وأعمال فيديو، تحت عنوان «**خواطر الصمت**». تستلهم الفنانة الإيرانية الطبيعة، والحيوانات، والتاريخ، لتخلق عالماً شبيهاً بالحلم. للاستعلام: 01/562778